فلسفة الطبيعة وأثرها في الشعر الأندلسي (دراسة تحليلية)

الدكتورة

معتوقة سالم المعطاني

أستاذ الأدب المساعد - بقسم اللغة العربية - جامعة أم القرى

العدد الثاني والعشرون

للعام ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٨م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده، ونستعينه، ونستغفره من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلله فلا هادي له، ونصلي ونسلم على أشرف الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبة أجمعين، **وبعد** :

فالأندلس أيكة وارفة الظلال، دنيةُ القطوف، يانعة الثمار، غردت عنادلها فترة من الزمان فملأت القلوب، والأسماع، وبهرت النفوس، والألباب، ولم يبق لنا من ذلك الفردوس سوى هذه الألحان الساحرة، والأنغام الشاردة تتهادى عبر القرون، وعلى صفحات الخلود تثير كوامن الوجدان، وتحرك سواكن الأشجان، فكانت الطبيعة في الأندلس ديوان شعر مفتوح ينظمون منه الألفاظ، ويتعلمون منه الأوزان، فأتت قصائده عقود في جيد فتاة لما فيها من اللآلاء، والجواهر المتلائلة، فكان شعر الطبيعة خير زاد تركته لنا بلاد الأندلس.

مما كان له الأثر في إثراء الشعر العربي، ولفت أنظار الشعراء والأدباء إلى فن شعر الطبيعة، وروعته.

هذا الدراسة حاولت أن أتناول "فلسفة الطبيعة وأثرها في الشعر الأندلسي" لما فيها من براعة الوصف، وسلاسة التعبير، ورشاقة اللفظ، ومدى تأثير هذه الفلسفة على الشعراء في تلك الحقبة من الزمن، مما جعلها الملهم والمثير لأحاسيسهم ومشاعرهم وآلامهم فتدفق الشعر العذب على ألسنتهم وسمت نفوسهم وأحاسيسهم في عالم الطبيعة والحب والجمال، لذلك جاء تصويرهم لها تصوير خبير بها وبفلسفتها، فالطبيعة بالنسبة لشعراء الأندلس متنفساً يتوصل عن طريقة إلى بسط مواقفهم ومعتقداتهم وشعورهم عن الحياة والوجود والحب والجمال. وقد تناولت الدراسة تطور شعر وصف الطبيعة عبر العصور و التغيرات التي حدثت له ،ثم تفرعت الدراسة إلى تناول الخصائص العامة لشعر الطبيعة في الأندلس وأثرها من خلال بعض النصوص الشعرية وتحليلها تحليلاً يوضح تلك الفلسفة ،كما تعرضت الدراسة إلى الموضوعات التي دار عليها شعر الطبيعة وأثره ،وفي نهاية المطاف تناولت الدراسة امتزاج شعر الطبيعة بالأغراض الشعرية من الغزل والمديح والشكوى والتحسر والرثاء وأثرها في تحقيق تلك الفلسفة التي سعى إليها شعراء الأندلس ،ثم الخاتمة ،فأرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وفِقت بالإلمام بهذا البحث، وما التوفيق إلا بالله العزيز الحكيم.

خطة البحث:

الباب الأول:

(أ) تطور وصف شعر الطبيعة عبر العصور من الجاهلية إلى العصر الأندلسي.

(ب) الخصائص العامة لشعر الطبيعة في الأندلس.

الباب الثاني:

شعر الطبيعة في الأندلس: موضوعاته:

١ – الروضيات.

٢ – الزهريات.

٣ – الخضر والثمر.

٤ – المائيات.

٥ – الثلجيات.

الباب الثالث:

فلسفة الطبيعة وأثرها في أغراض الشعر الأندلسي:

١ – الغزل.

٢ – المديح.

٣ – الشكوى والتحسر.

٤ – الرثاء.

الخاتمة.

الباب الأول

(أ) تطور وصف شعر الطبيعة عبر العصور من الجاهلية إلى العصر الأندلسي.

(ب) الخصائص العامة لشعر الطبيعة في الأندلس

أ)- تطور وصف شعر الطبيعة عبر العصور من الجاهلية إلى العصر الأندلسي.

المتتبع لنشأة الوصف في الشعر العربي يرى أنه اللون الغالب على الشعر القديم في العصر الجاهلي:.

فنجد وصف الإبل ، والخيل ، والوحوش ، والطيور، ووصف النباتات الصحراوية ، والسماء ، ونجومها ، وكواكبها ،فقد وصف الشاعر الجاهلي الطبيعة وأحبها ولم تكن غريبة عنه ،ولكنها لم تتميز حينذاك كفن شعري قائم بذاته، بل إن أكثر شعراء الجاهلية يصوّرون الطبيعة بقسميها الصامت والحي فينظرون إليها نظرة مصور، فوصف الشعراء الطبيعة من خلال وصف الليل والبرق ،والغيث والسحاب ،وبدت فتنة الشعراء بهذه الطبيعة تتمثل في وقوفهم على الأطلال وبكاها. وبكاء الأطلال مظهر من مظاهر وصف الطبيعة في الجاهلية الذي يتجلى فيه البث والشكوى، كما وصف الشاعر الجاهلي الطبيعة الحية، فصور فرسه على شكل جدير بالإعجاب، ووصف الناقة وحمار الوحش والظليم والنعامة، وكان وصفه يدل على التفنن والاستقصاء في فهم الطبيعة والتأثر بها .ولما انتقل العرب من البداوة إلى الحضارة و عرفوا نعيم الحياة

وترفها جمال الرياض فتطور شعر الطبيعة،ولكنه لم يستطع أن يستقل كفن خاص وبقى هو والوصف ممزوجاً بأغراض أخرى كالغزل والمدح والطرد والخمر.

"ولم يخل الشعر الجاهلي من وصف الرياض ، والأزهار والخمر، ولاسيما في أقوال الشعراء الذين خالطوا الحضارة ورأوا بساتين الحيرة أو غوطة الشام أو غيرهما من مدن العراق والشام، كأعشى بكر القائل في وصف روضة :

ما روضةٌ من رياض الحَزن مُعْشبَةٌ
خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ
مُؤَزّرٌ بعَميم النبْتِ مُكتَهِلُ
يوماً بأطيب منها نَشْرَ رَائحةٍ
ولا بأحسنَ منها إنْ دَنا الأصُل[1]".

يظهر لنا الشاعر في هذا النص مشاعر الإعجاب بالطبيعة المتمثلة في وصف روضة معشبة خضراء جاد عليها الغيث فزادها رونقه وجمال ،وقد صاغ الشاعر هذا لجمال صياغة محكمة معتمد على روعة الخيال وجمال التصوير وعذوبة الألفاظ.

ثم امتد الوصف إلى صدر الإسلام فنجد وصفاً للحـــروب ، والقتال ، وأدواته، وحصار المدن ، والفتوح ، فقد كان وصـــف الحرب صفة ظاهرة في هذا الشعر. لارتباط هذا الوصف بالفخر بانتصارات المسلمين في غزواتهم.

قال بشر بن ربيعة[٢] الخثعمي في معركة القادسية:.

ألمَّ خيالٌ من أميمة موهناً
وقد جعلتْ احدى النجومِ تغورُ

إلى أن يقول:

وحلتْ بباب القادسية ناقتي
وسعدُ بن وقاصٍ علىَّ أميرُ
تذكّرْ – هداكَ اللهُ – وقع سُيُوفِنا
بَبابِ قديْسٍ والمكرُّ عَسِيرُ
عشَّية ودَّ القومُ لو أن بعضهم
يُعَارُ جَنَاحيْ طائرٍ فيطيرُ
إذا ما فزغنا من قِراع كتيبةٍ
دَلفنْا لأخرى كالجبَالِ تَسيرُ.

أما في الشعر الأموي نرى وصـــفاً للـــديار ، والأطـــلال ، ووصفاً لبعض الحيوانات كوصف ثور وحشي في ليلة بـــاردة

للأخطل ، ووصف الإبل للراعي النميري ، ووصف الحمر الوحشية للشماخ ، وقد تطرق إلى وصف الخمر كثيرون من شعراء العصر الأموي : منهم عبدالرحمن بن الحكم ، عبدالرحمن بن أرطاه ، وابن حزابه التميمي ، ومالك بن أسماء ، والأخطل ، وغيرهم.

فنجد وصف الصحراء عند ذي الرمة الذي مزج ما بين الحب والصحراء في شعره فهو يختلف في وصفها عن الشعراء القدماء ، والمعاصرين له ، وهو من هذه الناحية – يمثل ظاهرة فريدة في الشعر العربي " فقد كان القدماء ، و المعاصرون له يعرضون لوصف الصحراء في أثناء قصائدهم التي تدور حول موضوعات الشعر التقليدية ، أما ذو الرمة فقد أصبح وصف الصحراء عنده موضوعاً مستقلاً يفرد له القصائد ، ويهب له فنه ، وكل ما يملك من وسائل تعبيرية ، وتصويرية ، فأهمية ذي الرمة تأتي من هذا التخصص بوصف الصحراء ، وفي هذا التفرغ يكمن أول فرق بين ذي الرمة وغيره من الشعراء"(٣).

يقول ذو الرمة :

إذا استودَعَتْه صَفصَفاً أو صريمةً

تَنَحَّتْ ونصّتْ جيدَها بالمناظر
حِذَاراً على وسْنَانَ يصْرَعُه الكَرَى
بكلِّ مَقِيل عن ضعافٍ فواتِر
وتَهْجُرُه إلاَّ اختلاساً نهارَها
وكم من محبٍّ، رهبةً العين هاجِرِ
حذَار المنايا، رهبةً أن يفُتنَها
به، وهي إلاّ ذاكَ أضعفُ ناصِرِ(٤)

فالشاعر يصوّر في هذه الأبيات ظبية ، وقد رمت بخشفها ، أو ابنها على الأرض ، ووقفت بعيداً عنه ، خشية أن تستهديَ السباعُ إليه ، وهو يصوّر التياعها من خلال تصوير نظراتها الحذرة ، ومن خلال إقامة مشهد كثير الحركة ، يوري في حد ذاته حركة ذي الرّمة النفسية ، واضطرابها، بالإضافة إلى وصف الصحراء برع الشعراء في عصر بني أمية أيضاً في وصف الخمر كقول الاقيشر الأسدي في وصفها:.

ومقعد قوم قد مشى من شرابنا
وأعمى سبقناه ثلاثاً فأبصر
شراباً كريح العنبر الورد ريحه
ومسحوق هندي من المسك أذفرا

ولها من زُجاج الشام عُنْقٌ غريبة

تـأنقَ فيها صانعٌ وتخَيّرا(٥)

ويعد العصر العباسي العصر الذي برزت فيه الحضارة والثقافة في جميع جوانبها فقد تميز هذا العصر بالانفتاح الثقافي والحضاري ، مما كان سبباً في انتشار اللهو والمجون ، لذلك بداء الشعراء يكثرون من وصف الخمر، والغلمان ، إلى جانب توسعهم في وصف الرياض المنتشرة في مجتمعهم ، فقد تطور وصف الطبيعة فشمل الحدائق ، والبساتين ، والقصور، وأدوات الزينة ، وغيرها تبعاً لاختلاف البيئة ، والامتزاج بالحضارات الأجنبية ، وإذا كانت الطبيعة في الجزيرة العربية متشابهة في فصول السنة ، فإنها في الشام ، والعراق ، ومصر، وغيرها تتفاوت شتاءً وربيعاً وصيفاً وخريفاً ، ولاسيما في فصل الربيع الذي هو شباب الزمان ، ومن الشعر الذي قيل في وصف الربيع

قصيدة لأبي تمام يعبر فيها عن إحساسه بجمال الطبيعة في فصل الربيع يقول :.

نَزلتْ مُقدِمةُ المَصيفِ حَميدةً

ويَدُ الشّتَاءِ جَدِيدَةٌ لا تُكْفَرُ

مَطَر يذُوبُ الصَّحْو مِنْهُ وبَعده
صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ الغضَارَةِ يُمْطِرُ
غَيْثَانِ : فالأنواءُ غَيْثٌ ظاهِرٌ
لَكَ وجْهُهُ ، والصَّحْوُ غَيْث مُضْمِرُ
ما كانَتِ الأَيَّامُ تُسْلَبُ بَهْجَةً
لَوْ أنَّ حُسْنَ الرَّوضِ كَانَ يُهَمَّرُ.

ثم يتوجه الشاعر بالخطاب إلى صاحبيه ليتأملا الطبيعة ، ويستمتعا بها، فيقول انظرا بإمعان ، واستقصاء تريا وجوه الحدائق ، والبساتين كيف تظهر في صور بديعة ملونة بالأزهار، فهذه الأزهار تنعكس عليها أشعة الشمس الساطعة نهاراً ، فتخفف من حدة ضوئها ، وتجعله فضياً هادئاً ، كأنه نور القمر ، ما أسعد الناس في الربيع إذ تتحول الدنيا إلى بستان كبير ممتع يخفف جماله من عناء العمل بعد أن كانت الدنيا قبل الربيع مجالاً للكفاح الشاق الجاف المرهق ،فنجد أن الأزهار بألوانها الجذبة وروائحها الذكية، وأشكالها اللطيفة وأحجامها تسحر الشاعر وتأسر قلبه ولسانه في حديثه عن جمال الربيع.

وهنا يقف الشاعر على معرض الأزهار في الكون الكبير فيقول : أصبحت بطون الأرض تخرج لظهورها كساء من النبات الذي تفتحت أزهاره فانشرحت له القلوب وتفتحت سروراً، وكل زهرة تتألق فيها قطرات الندى كأنها عين ترنوا إليك والدمع يتساقط منها ،وذلك عندما يقول :.

يَا صاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرِيكَمَا
تَرِيا وُجُوهَ الرَّوضِ كيف تَصَّورُ
تَرِيَا نهاراً مُشْمِساً، قَدْ شَابَهُ
زَهْرُ الرُّبَا، فكأنَّما هو مُقْمِرُ
دُنْيَا مَعاشٍ لِلْورى، حَتَّى إِذَا
حَلَّ الرَّبِيعُ فَإِنَّمَا هَي مَنْظَرُ
أضحْت تَصُوغ بُطونُهَا لِظُهورِها
نَوراً تَكَادُ لَهُ القُلوبُ تُنَوِّرُ
مِنْ كُل زاهِرة تَرَقْرَقُ بالنَّدى
فَكأنَّها عَين إليك تَحَدَّرُ(٦).

كما وصف الربيع أيضاً البحتري ، فقد تناول فيه مظاهر الجمال الطبيعي عند حلول الربيع ، وأثره في تفتح الأزهار، واخضرار الأشجار، ورقة النسيم ، فقد رسم البحتري صورة

كلية لمظاهر الجمال في الربيع حافلة بالحركة تحسها من خلال النص عندما يقول :

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكاً
من الحُسنِ حَتَّى كَادَ أن يَتكلَّما
وَقَدْ نَبَّه النَّيْروُزَ في غَسَقِ الدُّجَى
أَوَائِل وردٍ كُنَّ بالأْمْسِ نُوَّمَا
يُفتقُها بَرْدّ النَّدى فكأنَّه
يَبُثُّ حَدِيثاً كان قَبْلُ مُكَتَّما
فَمِن شَجَرٍ رَدَّ الَّبيعُ لِبَاسه
عَلَيْهِ كَمَا نَشَّرْتَ وَشْياً مُنَمْنَما
وَرَقَّ نَسِيمُ الّريح حَتَّى حَسِبْتَهُ
يَجِيءُ بِأَنَفْاسِ الأَحِبةِ نُعَّماً(٧).

فشاعر هنا لم يصف الربيع بأزهاره وأشجاره فحسب،ولكنه رأى الربيع حياً طلقاً مزهواً بجماله، حتى يكاد يبتسم حسناً. فالشاعر هنا يحدثنا عن إحساساته إزاء مايراه من جمال الطبيعة وأثرها عليه. فهذا الورد الذي فتح الربيع أكمامه ، يحس بة الشاعر كأنما كان غارق في سبات، فلما جاء الربيع نبهه أن يستيقظ، ليستمتع بحسن الجو، وجمال الحياة. وعندما

استيقظ الورد من نومه وتفتح ،أحس الشاعر كأن الورد يذيع حديث البهجة ويلقى إلى جارة من الورد كلاماً طويلاً كان يخفيه، وهو نائم مغمض العين. وأما الأشجار في إحساس الشاعر، فإنها تبعث البهجة إلى النفوس ، بعد أن كانت تثير فبها الألم والانقباض، عندما كانت عارية الفروع من الأوراق .

لم يكتفي الشاعر بوصف إحساسه بل عبر عن عواطفه فالنسيم الرقيق ، يهب فينعش النفس ،كأنما هو أنفاس حبيب ،تبث في القلب بهجة وأملاً، وتفاؤلاً. لقد جعل الشاعر من تلك الطبيعة كائن حي يبث الحياة والحب فيمن حولة.

ومن الشعر الذي قيل في الطبيعة شعر لأبي نواس في وصف روضة:

"يوم تقاصر واستبثَّ نعيمه
في ظِّل مُلتفِّ الحدائق أخضرا
وإذا الرياح تنسّمتْ في روضهِ
نثرت به مِسْكاً عليك وعنبرا(٨)"

ثم تقدم شعراء العباسيين في وصف الزَّهريات ، والتغزل بها ، كقول ابن المعتز:

يصف قضيباً من الريحان :.

" قضيبٌ من الريحان شابَه لونُهُ
إذا ما بدا للعين لون الزمُرُّدِ
وشبهتُه لما تأملتْ حُسْنَه
عِذاراً تَدَلّى في عوارضِ أمرد[٩]"

ومن الشعراء الذين أجادوا الوصف ابن الرومي والصنوبري وغيرهما.

يقول الصنوبري في وصف الرُّبَا في الربيع :.

يَا رِيمُ .. قُومِي الآن وَيْحكِ فانظُري
مَا لِلرُّبَا قَدْ أظْهَرتْ إِعْجابَها؟
كَانْت مَحَاسِنُ وَجْهِهَا مَحْجُوبَةَ
فَالآنَ قَدْ كَشَفَ الرَّبِيعُ حِجَابَهَا
وَرْدٌ بدا يَحْكِي الْخُدودَ ونَرْجسٌ
يَحْكِي العُيونَ، إذَا رَأتْ أَحبَابَهَا
وَشَقائِقٌ مِثْلُ الْمَطَار قَدْ بَدَتْ
حُمْراً، وَقَدْ جُعِلَ السَّوادُ كِتَابَهَا
والَّسرْوُ تَحْسَبُه الْعُيونُ غَوانِياً
قَدْ شَمَّرتْ عَنْ سُوقِهَا أَثْوابَهَا
وَكَأَنَّ إِحْدَاهُنَّ من نَفَحِ الصِّبا

خَوْذٌ تُلاعِبُ مَوْهِناً أَتْرَابَهَا
لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ لِلرِيَاضِ صِيَانةَ
يَوْماً لَمَا وطِئَ الثَّامُ تُرَابَهَا

لقد رسم الشاعر في هذه الأبيات صورة شعرية أجزاؤهـا: الربا ،والأزهار، والأشجار والنسيم ،وخطوطها الفنية: صـوت تسمعه في ندائه لصاحبته وحثها على المشاهدة لهـذا الجمـال ولون تراه فـي الـورود ،والنـرجس، والخـدود، والعيـون، والشقائق ،والمطارف ،وحركة تحسـها فـي "كشـف الربيـع حجابها" و "شمرت أثوابها" و"تفح الصبا" و"تلاعب". ومن خلال تلك اللوحة الكلية المؤتلفة جاءت صور خيالية جعلت الشـاعر يدعو صاحبيه إلى مشاهدة الربا التي أظهرت من الجمال فـي فصل الربيع ما يجعلنا نعجب بها. فقد كانت محاسنها مسـتورة فكشف الربيع عنها الحجاب، والورد في حمرته يشـبه خـدود الحسان ، والنرجس في شكلة يشبه العيون حين ترى الأحبـاب ،وشقائق النعمان بما فيها من حمـرة وسـواد مثـل الثيـاب الحريرية الحمراء المطرزة بنقط سوداء، وقد ظهر شجر السرو رشيقاً كالغواني الجميلات اللاتي شمرن الثياب عـن السـيقان ،وكل شجرة من السرو تهزها ريح الصـبا فتتمايـل كالفتـاة

الناعمة التي مع رفيقاتها وقت الأصيل ،فنجد أن الشاعر أستطاع من خلال وصف الطبيعة وأثر فلسفتها عليه إلى الجمع بين التصوير الكلي والجزئي ، وهي صورة جميله محببة توضح الفكرة التي أرادها الشاعر وتؤثر في النفس وتلائم النشاط في فصل الربيع وتقديره للجمال وصونه عن اللئام.

كما فقد قام هؤلاء الشعراء بوصف القصور، والبرك ، والليل ، والنهار ، والنجوم ، والرياح ، والمطر، والربيع ، والأزهار، والخمر، وغير ذلك ، وكان معظم هؤلاء الشعراء يأتي شعرهم ممتزجاً بأغراض أخرى في ثنايا قصائدهم.

وفي الأندلس سار الشعراء في وصف الطبيعة وجمالها على نهج ابن الرومي الذي وصف الطبيعة، وفضل النرجس في شعره، إلى جانب الصنوبري الذي يعد المؤسس الحقيقي لشعر الطبيعة ، فقد كانت قبله عبارة عن بدايات بسيطة تذكر في بداية القصيدة ، أو في وسطها ، ولكن الصنوبري أفرد القصائد الكاملة في وصفها، ومن هنا أخذ أهل الأندلس هذه البداية ، ثم تطورت تلك البوكير الشعرية إلى أن أصبح أهلها من أشهر الشعراء في وصف الطبيعة ، وجمالها ،فقد استلهم الشعراء منها فنهم الوصفي ، وأخذوا يمزجونه بأغراض الشعر المتعددة

، أو يجعلونها قصائد، ومقطوعات قائمة بذاتها في وصف الرياض، أو الزهور، أو الأنهار، أو الثمار، أو الخضر، أو الثلج ، وغير ذلك من الصور الوصفية التي استطاع أن يصورها الشاعر الأندلسي.

فقد قال أبو بكر بن هذيل في قضبان الرياض ، وهبوب الرياح عليها هذه الأبيات الرائعة:.

" هَبَّتْ لنا ريحُ الصَّبا فتعانقتْ
فذكرتُ جيدَك في العناق وجيدي
وإذا تألف في أعاليها الندى
مالت بأعناقٍ ولطف قدود
وإذا التقتْ بالريح لم تبصِرْ بها
إلا خدوداً تلتقي بخدودِ
تيجانُها طَلٌّ وفي أعناقها
منه نظامُ قلائدٍ وعقودِ
فترشني منه الصِّبا فكأنهُ
من ماءِ وردٍ ليس للتصعيد[١٠]

والذي يقرأ الشعر الأندلسي في غرناطة ، و إشبيلية ، و قرطبة ، و غيرها من المدن يجد نفسه أمام تراث ضخم لا يقل عن التراث الذي خلفته بلاد المشرق من حيث الصفات ،

والسمات، والصور، والموضوعات ، والأغراض ، والأخيلة ، والمعاني ، وإن كان هناك طابع يميزه عن سواه ، وشكل يخصه دون غيره ، ولون يمكن أن ينفرد به ، فذلك هي تلك المعاني المبتكرة ، والوصف البديع للطبيعة إلى جانب الذوق السليم ، والخيال النقي.

ولقد كان الشعر الأندلسي في وصف الطبيعة قد أضاف للأدب العربي رونق ، وجمال ، وذلك لما فيه من براعة الوصف ، وسلاسة في التعبير، ورشاقة في اللفظ ، يجعلنا نلامس تلك الطبيعة الناطقة فندرك جمالها ، وبهائها الرائع ، ورونقها الناصع ، وسحرها الخلاب ، وطيورها المغردة ، وفتنتها الحالمة.

ب)- الخصائص العامة لشعر الطبيعة في الأندلس:.

"١ – غلبة التشبيه والاستعارة على أساليبهم ، وكلا الأسلوبين يدل على خصب الخيال وسموه وسعته وعمقه.

٢– تشخيص الأمور المعنوية ، وتجسيمها، وذلك بإبرازها في صورة شخوص ، وكائنات حية.

٣ – بَثُّ الحياة ، والنطق في الجماد ، لما لذلك من طرافة ، ووقع حسَن في النفس ، ومن أمثلته قول بن خفاجة في وصف الجبل:

وقورٌ على ظهر الفلاة كأنه
طَوالَ الليالي، ناظرٌ في العواقبِ
أَصخْتُ إليه، وهو أخرسٌ صامتٌ
فحدَّثني ليل السُّرى بالعجائبِ
وقال: ألاكَمْ كنتُ ملجأ قاتلٍ
وموطنَ أوّاهٍ تبتَّلَ تائبِ
وكم مربِّي من مُدْلجٍ ومُؤَوِّبٍ
وقال بظليِّ من مَطِي وراكبِ". (١١)

نجد في النص تعاطُفاً حيّاً رائعاً بين ابن خفاجة والجبل ، فقد نفح الشاعر في الجبل من روحه الكئيبة ، فإذا هو بشر

سويٌّ كئيب ، قد ملَّ البقاء على ظهر الفلاة ، تلاطم الرياح الهُوجُ معاطفه، وتزاحم السحب الخضر غواربه ، وقد ودَّع أصحابه واحداً إثْرَ واحد؛ وهو قائم منتصب يَرْعى النجوم ، ويراقب طلوعها ، وأفولها أبد الدهر.

إن ابن خفاجة قد تجاوز الثمانين ، فلا عجب إذا ملَّ الحياة ، وسئم تكاليفها صنيعَ زهير شيخ الحكماء في الجاهلية.

في هذه الأبيات يقف الشاعر إزاء الجبل وقفته مع حيٍّ عاقل ، نابضِ القلب، ثاقبِ الذهن ، طويل التفكير ، عجيب الحديث.

جبلٌ باذخ ، أشم ، تطمح ذوائبه في الفضاء ، ويطاول بأعاليه أنحاء السماء، ضخم لا حدَّ لضخامته ، يصدُّ وفد الريح من حيث هبَّت ، جليل مهيب ، جاثم على ظهر الفلاة ، لا يتزعزع لعاصفة ، ولا يضطرب لراجفة ، كأنما يفكر في مصاير البشر ، وخواتيم الحياة ، ولا يكاد الشاعر يرنو ببصره إلى الجبل حتى يرتعش رعشة الحياة ، وتذوب فيه الروح ، وتركض الدماء في عروق الصخر الأصم ، فينطلق لسانه ، وهو الأخرس الصامت ، ليحدث الشاعر في مسراه بالعجيب العجاب.

ونلاحظ في هذا الجزء من القصيدة قوة خيال الشاعر ، فلم يعد الجبل في ذهنه أكواماً من الحجارة ، والصخور ، والتراب يعلو بعضها بعضاً حتى تفوت ذراها الطَّرف ، و إنما هو شيخ معم ، جليل مهيب ، بارع البيان على صمته ، ناطقٌ على خرسه ، يتحدث فيسرَّي ، ويُسَلي ، ويعظ ، ذلك هو جبل ابن خفاجة ، انسان من لحم ، ودم تخفق جوانحه بأنسام الحياة ، وينبض قلبه بحرارة الدماء.

فالجبل الذي هو جماد قد تحول بالتوسع الذي هيأته الاستعارة إلى إنسان حي ناطق ، يروي بعض ما مَّر به من تجارب.

٤- الاستعانة في رسم ، وتلوين الصور المستوحاة من الطبيعة ببعض فنون البديع المعنوي، واللفظي من مثل الطباق ، والمقابلة ، والمبالغة ، وحسن التعليل ، والجناس، كقول ابن هانئ الأندلسي يصف أيام الربيع:(١٢)

أَلؤلؤٌ دمعُ هذا الغيثِ أم نُقَطُ
ما كان أحسنه لو كان يُلتقطُ
أَهدى الربيعُ إلينا روضةً أُنُفاً
كما تنفَّس عن كافوره السَّفَطُ

غمائمٌ في نواحي الجو عالقةٌ
حُفْل تحدَّرَ منها وابل سبِطُ
بين السحاب وبين الريح ملحمةٌ
معامعٌ وظبيً في الجو تختَرطُ
كأَنه ساخطٌ يرضى على عجَلٍ
فما يدوم رضىً منه ولا سَخَطُ
كأن تهتانها في كلِّ ناحية
مدٌّ من البحر يعلو ثم ينهبطُ
وللجد يدين من طولٍ ومن قِصَرٍ
حبلان منقبضٌ عنا ومنبسطُ
والأرض تبسُط منها في الثرى وَرِقاً
كما تنشر في حافاتها البُسطُ
والريح تبعث أَنفاسا معطَّرةً
مثلَ العبير بماءِ الورد مختلِطُ

وفي هذا الوصف يعمد ابن هانئ إلى أسلوب يعتمد على المبالغة والصنعة، ويقدم لنا صورة حية للطبيعة بما فيها من عوارض الغيث ومعركة السحاب والريح.

٥- إطلاق العنان للخيال ليرتاد عالم الفكر، ويختار منه المعاني التي توحي بالحضارة و الطرافة.

٦- التصرف في أرقِّ فنون القول ، واختيار الألفاظ التي هي مادة لتصوير الطبيعة ، و إبداعها في جمل ، وعبارات تخرج بطبيعتها ، وكأنها التوقيع الموسيقي.

٧- تصوير شعرهم لطبيعة الأندلس الحية ، وطبيعتة الصامتة ، وطبيعته الصناعية الناشئة من استبحار الحضارة ، والعمران ، والقصور، والبرك ، والأحواض.

٨- قلما يأتي شعر الطبيعة عندهم كغرض قائم بذاته ، اللهم إلّا في القطع القصار، وعلى هذا فأكثره يأتي ممتزجاً بأغراض أخرى.

٩- " العناية بالألوان ، والحركة ، ويظهر ذلك في رسمهم للمناظر الطبيعية المختلفة ، فتظهر كأنها صورة زيتية ملونة مع عناية بتوزيع الظلال ، والضياء ، وتصوير الحركة ، والسكون.

١٠- وحدة الموضوع ، وتماسك بناء القصيدة ، بمعنى أننا نجد القصيدة وحدة متماسكة متألفة من أجزاء مرتبة ترتيباً معيناً، ليعبر عن معنى ، أو عاطفة معينة "[١٣].

١١- الطبيعة عندهم طروب تبعث جو الطرب ، وأكثر شـــعرهم في الطبيعة وصف لمنتزهاتهم، ومجالس أنسهم ، ولهـــوهم في أحضانها.

١٢- ((وصف الطبيعة عندهم متصل بالغزل ، والخمر فهـــم لا يذكرون الطبيعة إلا في رحاب الحب، بل لا يذكرون الحب إلا في رحاب الطبيعة ، وهم بهذا يمنحون غزلهم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه الطبيعة التي تضم خلواتهم ، وتفسح لهم مجال اللهو، والشراب ، والأمثلة كثيرة في شعر ابن زيدون وابـــن حميدس وابن خفاجه على امتزاج الطبيعة بالغزل والخمر وما يقتضيه هذا الامتزاج من لهو، وطرب))[١٤].

قال ابن حمد يس يصف الخمر في ظلال الطبيعة:((

نحنُ في جنةٍ نباكِرُ منهـــــا ∴ سأحلِيْ جدولٍ كَسْيفٍ مجـــردْ
صقلتْ متنَهُ مداوسُ شـــــمس ∴ من خلال الغصون صقلاً مُجَدَّد
ومُدام تطير في الصحن سُكْراً ∴ فَتُحَلُّ العقودُ منها و تُـعْقَـــد
جسمها بالبقاء في لدَّنٍّ يبلى ∴ وقُواها مع الليالي تَجَدَّدْ))[١٥].

١٣- ((المرأة صورة من محاسن الطبيعة ، والطبيعة تجد فـــي المرأة ظلها ، وجمالها ، ولذا كانت الحبيبة روضاً ، وجنةً ، وشمساً ، وقد قال المقري عن شعراء الأندلس:

" إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ، ومن النرجس عيوناً ، ومن الآس أصداغاً ، ومن السفرجل نهوداً ، ومن قصب السكر قدوداً ، ومن قلوب اللوز وسُرَر التفاح مباسماً ، ومن انبة العنب رُضاباً"(١٦)).

لقد كان للطبيعة فلسفة خاصة في تأثيرها على الشعراء لدرجة أن الشاعر ينظر إلى الطبيعة نظرة خاصة،تتمثل في انطباعتة وأحاسيسه وعلاقاته،فيخرج تلك الفلسفة الخاصة به من خلال التعبير عن أثر هذه الطبيعة على نفسة وعلى شعرة.كما أن وصف الطبيعة والإعجاب بجمالها يدعو إلى كثرة الخيال ،ووفرة الصورة ،لذلك وقف الشاعر الأندلسي أمام مناظر الطبيعة وقفة المصور لا وقفة الرسام.

الباب الثاني

"شعر الطبيعة

في الأندلس موضوعاته"

١ – الروضيات.

٢ – الزهريات.

٣ – الخضر والثمر.

٤ – المائيات.

٥ – الثلجيات.

شعر الطبيعة في الأندلس:.

فتنت الأندلس العرب الفاتحين ، وخلبت ألبابهم بروائع الرياض ، وبدائع الجنان ، ومباهج الخمائل ، ومفاتن الجداول ، فقد حبا الله الأندلس طبيعة فاتنة تنصب فيها الجبال الخضراء، وتمتد في بطاحها السهول الواسعة ، وتجري فيها الأنهار، وتغرد على أفنان أشجارها العنادل، وتسرح الأنعام في مروجها الجميلة ، ويعمل الفلاحون في حقولها المعطاء ، ويهب النسيم رخاء فيعطر جوها البديع ، وقد ملكت هذه المفاتن الطبيعة نفوس الشعراء في الأندلس فحثت قرائحهم على القريض ، وغدت قلوبهم بالجمال ، فانطلقوا يعبرون عن افتنانهم بها ، وحبهم لها ، بل أنهم لم يدعوا مشهداً في بلادهم دون أن يصفوه ، فقد كانت الطبيعة ينبوع للشعر لا ينضب ، فمن هؤلاء الشعراء الذين تغنوا بجمال الطبيعة ابن خفاجة ، وابن زيدون ، وابن حمد يس الصقلي، وغيرهم من الشعراء الذين أجادوا في هذا النوع من الشعر.

فقد قال شاعرهم ابن سَفَر المَرينيّ في مدح الأندلس:.

في أرض أندلس تُلتَذُّ نَعماءُ ∴ ولا يفارقُ فيها القلبَ سَرَّاءُ
وليس في غيرها بالعيش مُنَتفَعٌ ∴ ولا تقوم بحق الأنسِ صَبهاءُ

وكيف لا تُبهجُ الأبصارَ رُؤيتُهـــا ∴ وكلُّ روض بها في الوَشْي صنعاءُ
ليس النسيمُ الذي تهفو بها سَحَراً ∴ ولا انتشارُ لآلي الطلِّ أنداءُ
وإنما أَرَجُ النّدِّ استثارَ بها ∴ في ماء وَرْدٍ فطابتْ منه أرجاءُ
وأين يبلغ منها ما أُصَنِّفُهُ ∴ وكيف يحوي الذي حازتْهُ إحصاءُ
قد مُيِّزتْ من جهات الأرض حين ∴ بَدَتْ فريدةً وتولّى مَيْزَها الماءُ[١٧].

فقد استطاع الشاعر في هذه الأبيات أن يصف الأندلس ، ونعيمها ، ومحاسنها بما حوته من جمال و فتنةً جذبت بها القلوب ، والأبصار، بل أن الأمر لا يقتصر على ذلك ، بل نجد أن بعض الشعراء يشبه الأندلس بالجنة ، لما فيها من نعيم ، وما فيها من طبيعة خلابة ، وقد ملكت هذه المفاتن نفوس الشعراء في الأندلس ، فحثَّت قرائحهم على القريض ، وغدت قلوبهم بالجمال ، فانطلقوا يعبرون عن افتتانهم بها ، وحبهم لها ، وجعلتهم يرون فيها كما يقول ابن خفاجة جنة الخلد بمائها ، وظلها ، وأنهارها ، وأشجارها :

يا أهلَ أندلسٍ لله دَرُّكمٌ
ماءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشَجارُ
ما جنةُ الخُلْد إلا في دَياركُمُ
ولو تَخَيَّرتُ هذا كنتُ أَختار
لا تختشوا بعدَها أَن تدخلوا سَقَراً

فليس تُدخلُ بعدَ الجنةِ النار[١٨].

كما تعددت موضوعات شعر الطبيعة فمنها الروضيات ، والزهريات ، والمائيات ، والثلجيات، وغير ذلك من جوانب هذا الشعر الذي اتسم بجمال الصياغة ، وإبداع الوصف ، وتأليف العبارة، فقد كان شاعر الطبيعة رسام يستخدم أدواته من ألفاظ ، وعبارات ، وخيال ليشكل لوحة فنية نابضة بالحياة فمن شعر:.

(١)- **الروضيات**:

قول الشاعر أبي جعفر أحمد بن طلحة الذي جعل من هذه الطبيعة الساحرة التي أجاد وصفها بما أسبغ عليها من تشخيص دافعا إلى المنادمة ، وحث الكؤوس، والاستمتاع بتلك الجلسة لها نئه فقد قال:

أَدِرْهَا فالسماءُ بَدَتْ عروسا
مُضَمَّخَةَ الملابس بالغَوَالي
وَخَدُّ الروْضِ حَمَّرَهُ أصيلٌ
وجَفْنُ النَّهْر كُحِّلَ بالظِّلالِ
وَجِيدُ الغُصْنِ يَشْرَقُ منْ لآلٍ
تُضِيءُ بهنَّ أكفانُ اللَّيالي[١٩].

فقد أغرم أدباء ، وشعراء هذا العصر بالرياض ، ومياهها ، وأزهارها ، فلم يكتفوا بوصفها وصفاً خارجياً ، بل عمدوا إلى إضفاء الحياء عليها ، ولونوها بألوانهم النفسية ، فقد جاء شعرهم معبراً عن البيئة الأندلسية في كثيراً من الأحيان ، فقد تميز شعرهم في الروضيات بصدق الشعور إلى جانب كثرة التشبيهات ، والمحسنات البديعة إلى جانب التشخيص الذي تميز به أهل الأندلس في شعر الطبيعة ، فمن ذلك قول الشاعر أبي الحسين الوقشي الذي نقل لنا جلسة شرب مع أصحابٍ له في روضةٍ قرب النهر، فقد مضى يصف لنا الروضة بكل أجزائها ، وألوانها ، وشعوره فيها فقال:

شربنا على وادي القصير عشية
وقد ركضت فيه جياد النواسم
على نرجسٍ من الدنانير بددّت
على بسط خز والبهار دراهم
وقد ضحكت للأقحوان مباسم
تقبلها من حسنهن المباسم
ورقّ رداء للأصيل مدبجّ
فانق فيه من يد الشمس راقم

وطلت عليه للغمام ذوائب

فخّيل لي أن الغمام عمائم

هنا لك لو أبصرتني لوجدتني

وقد حسدتني في الهديل الحمائم

وقد ملأت عيناي قلبي مسرة

وغاب نصيح عن جنابي ولائم

ولما انقضى ذاك النعيم شككت

في تمكنه حتى كأني حالم(٢٠).

وتميزت هذه القصيدة بوحدة الموضوع ، في وصف الروضة ، وتمثل امتزاج الشاعر بالطبيعة.

كما يقول ابن خفاجة في :

وَ صَقِيلة الأَنوْارِ تَلْوِي عِطْفَها

ريحٌ تَلُفُّ فُرُوعَها مِعْطَارُ

عاطي بِهَا الصَّهْبَاءَ أَحْوَى أَحْوَرٌ

سَحَّابُ أَذْيالِ السُّرى سَحَّارُ

والنَّوْرُ عِقْدٌ والغُصُونُ سوالِفٌ

والجِذْعُ زَنْدٌ والخليجُ سِوَارُ

بِحَدِيقَةٍ ظَلَّ اللَّمَى ظِلاًّ بها

وتطلَّعَتْ شَنَباً بها الأنْوَارُ
رقَصَ القضيبُ بها وقد شَرِبَ الثرى
وشَدَا الحَمامُ وصَفَّقُ التَّيَّارُ
غَنَّاءُ أَلْحفَ عِطْفَها الوَرَقُ النَّدِي
وَالْتَفَّ في جَنَبَاتِها النُّوَّارُ
فَتَطَلَّعَتْ في كُلِّ مَوْقعِ لحظةٍ
مِنْ كلِّ غُصْنٍ صَفْحَةٌ وعِذَارُ(٢١).

وفي هذه القطعة الشعرية نلمح إبداع ابن خفاجة الذي تتضاءل قصائد الشعراء أمام دقة إبداعه في مجال شعر الطبيعة ، وإنه لم يترك حلية لفظية إلا ووشى بها هذه الأبيات حتى أنه جعل من حديقته غادة معطار ، النور عقودها ، والغصون سوالفها ، والجذع زنودها ، وخليج الماء سوارها ، ونلمح في هذه الأبيات الشعرية القليلة لابن خفاجة التشخيص الذي برع به أهل الأندلس في شعر الطبيعة إلى جانب رقة الألفاظ ، وقوة السبك بالإضافة إلى جمال المعاني ، والصور المستوحاة من البيئة الأندلسية .

ومن شعر ابن الزقاق قوله في وصف روضة :.
تأرَّجَ مطولُ الروابي فَزُرْتُها

وأمثالُ هَاتِيكَ الرُّبَي يَقْتَضِي الزَّوْرَا
وأَتْحَفَنَي مِنها الربيعُ بِوَرْدِهِ
عبيراً بهِ الأَنْفَاسُ إذْ فَتَقَ النَّوْرَا
حَكَتْ نَفْحةً مَّمنِ هويتُ ووَجْنة
فأَنشقها طَوْراً وأَلْثُمَها طَوْرَا(٢٢)

(٢) **الزهريات** :.

وكما أغرموا بوصف الرياض ، وما فيها من أزهار ، وأشجار، ومياه ، أغرموا كذلك بوصف الورد ، والنرجس ، وأزهار الباقلاء ، والشقيق ، والياسمين، والسوسن ، والحزم ، وغيرها من هذه الأنواع، وسنتحدث هنا عن الورد ، والنرجس ، والياسمين.

(ا) **الورد**

فلم يقف الأندلسيون عند جماله ، والتعبير من امتاعه للعين ، واعجابه النفس ، ولكنهم جاوزوا ذلك إلى جعله ملكاً تحسده الأزهار ، فقد أغرم الشعراء بوصفه أكثر من أغراهم ببقية الأزاهير، وهذا أحد أبناء الأندلس يرى ورداً كثيراً منثوراً على صفحة خليجٍ تكسرت صفحاته بفعل الرياح فيقول في هذا:.

نَثْرُ الوَرْدِ بالخليجِ وَقَدْ دَرّ

جَ أَمْوَاهَهُ هُبُوبُ الرياحِ
مَثلُ دِرْعِ الكَمِيِّ مزَّقَها الطَّعْ
نُ فسالَتْ بها دماءُ الجراحِ[٢٣].

بل إن بعض الشعراء يجعل الورد في مقدمة الأزهار جميعها ، ومن ذلك قول ابن حبيب، فقد جعل الورد خد الربيع:.

انظر إلى خد الربيع مركبا
في وجه هذا المهرجان الرائق
ورد تقدم إذا تأخر واغتدى
في الحسن والاحسان أول سابق[٢٤].

ولا غنى لنا عن ديوان ابن خفاجة الأندلسي نقطف منه أروع الأبيات الشعرية ، فها هو ذا يقول: هذه الأبيات التي استضاءت بالدقة ، وتزينت بجمال الصياغة ، فقد حيا ابن خفاجة شاعر الطبيعة وردة صغيرة جاءت أيام مشيبة فتمنى أن يرجع إلى عهود صباه ، فأرسل إليها نظرة حانية أفصحت عما يضمرلها من حب ، وما يكن لها من ولاء ، وتخيل فيها حنين الربيع إليه على النوى ، وتحياته أليه مع البعاد ، وكأنهما يتبادلان الحب ، والشوق، والهيام ، وذلك في قوله:.

وغريبة هشت إلى غريرة

فوددت لو نسخ الضياء ظلاماً

طلعت مع المشيب تشوقني

شيخاً كما كانت تشوق غلاماً

مقبولة أقبلتها عن لوعة

نظراً يكون إذا اعتبرت كلاماً

عذرت وقد أجللتها عن نشوة

كبراً وأوسعت الزمان ملاماً

عبقت وقد حن الربيع على النوى

كرماً فأهداها إلىّ سلاماً(٢٥)

(ب) النرجس:

كما أحب الكثير من الأندلسيين الورد ، وتعصبوا له كذلك نرى بعضاً منهم يؤثر النرجس على جميع الأزهار، ويعقد له الزعامة على الجميع ، ومن هؤلاء سعيد بن محمد من قصيدة طويلة في الرد على ابن الرومي:.

عني إليك فما القياس الفاسد

إلا الذي رد العيان الشاهد

أزعمت أن الورد من تفضيله

خجل وفي حلل الفضيلة عائد

إن كان يستحي لفضل جماله
فحياؤه فيه جمال زائد
والنرجس المصفر أعظم رتبة
من أن يحول عليه لون واحد
لبس البياض لصفرة في وجهة
صفة كما وصف الحزين الفاقد[٢٦].

(جـ)- **الياسمين**:.

وقد أعجب بنو عباد بهذه الزهرة إعجاباً شديداً ، مما جعلهم يتفنون في وصفها ، فمن ذلك قول المعتمد بن عباد فيشبهها على أغصانها الخضراء الملتفة بدراهم منثورة على ثوب أخضر فيقول:.

ويا سمينٍ حَسَنِ المنْظرِ
يفوقُ في المرْأى وفي المخبرِ
كأَنَّهُ من فَوْقِ أغْصَانه
دراهمُ في مِطْرف أَخضرِ

وكذلك من قوله :.

يا حبذا الياسمينُ إذ يزهرْ
فوقَ غُصونٍ رطيبةٍ نُضّرْ

قد امْتَطَي للجمالِ ذُرْوَتَها
فوق بساطٍ مِنْ سُنْدسٍ أَخْضَرْ
كأَنه والعيونُ ترمُقُهُ
زُمُرُّدٌ في خلالِه جَوْهَرْ(٢٧).

فإنه في هذه الأبيات يشبه الياسمين على الغصون الخضراء بالجوهرة بين أجحار الزمرد.

و لم يقف الإعجاب بالياسمين عند المعتمد بن عباد فقط بل ذكرها العديد من الشعراء، فمن هؤلاء الشعراء أحمد صفوان، فقد هام وجداً بالياسمين ، وأخذ يدعو له بالسقيا حتى تمنى أن يسقيه ماء وجهه ، فمن ذلك قوله:.

لهذا الياسمين على حق ∴ أنا بشبيهه في الحسن رق
فلا زالت عرائشه تحيا ∴ بغاديه لها طل وودق
غمام كالعريش أحم غض ∴ بنور منه في الجنبات برق
و لو أسقيته من ماء وجهي ∴ لما وفيته ما يستحق(٢٨).

(٣) **الخضر والثمر**:.

لم يكتفي الشاعر الأندلسي في وصف الطبيعة بالروض ، والزهر فقط بل تطرق إلى باقي أجزاء الطبيعة من الفاكهة ، والخضرة التي تملئ العين سحراً، والنفس بهجة،

كل ذلك كان مصدر وحي لشعراء الأندلس ، وإن لم يكن بالقدر الذي أوحت به الرياض، والأزهار، وعلى الرغم من ذلك نجد أن المشارق كانوا أوفر إنتاجاً ، وأغنى صوراً في هذا اللون من شعر الطبيعة.

ويظهر في وصف الأندلسي للثمار، والخضر الميل إلى التشخيص وذلك بإبرازها في صورة شخوص وكائنات حية، يصدرُ عنها كلُّ مايصدر عن الكائنات الحية من حركات وأعمال ، فهذا أحمد بن شكيل يبات ليلته معانقاً تفاحة يبثها شكواه ، وسرّه لا لشيء إلا لأنها قد ذكرته بسرة من يحب:.

تفاحة بت بها ليلتي
أبثها سرّي والشكوى
أضمها معتنقاً لاثماً
إذ ذكرت سرة من أهوى(٢٩)

ونجد أن تفاحة في قاع بركة صافية تثير مشاعر صفوان بن إدريس فيقول:.

ولم أر فيما تشتهي العين منظراً
كتفاحة في بركة بقرارٍ
ينبض عليها ماؤها فكأنها

بقية خد في اخضرار عذارٍ[٣٠]

وفي وصف العنب تطرق ابن زيدون إلى ذلك الوصف ، وقد أبدع فيه غاية الإبداع ، فمن ذلك قوله:.

أتاك مُحيِّياً عنِّي اعتباراً
عَذارَى دُونَه ريقُ العَذَارَى
تخال الشِّهدَ منه مُستَمدّاً
ونفحَ المسَكِ منه مستعارا
يروقُ العينَ منه جِسْمُ ماءٍ
غَدا ثوبُ الهواء له شعارا
ولولا أنني قد نِلْتُ منه
ولم أَسكْر لخِلْت به عُقاراً[٣١].

ونجد أن ابن زيدون في هذه الأبيات يعقد مقارنة بين العنب "عذارَى"، وبين ريق العذارى ، ثم يقول إنه الخمر الحلال الذي لا يصدع ، ولا ينزف، فلك منه أن تصيب هنيئاً مريئاً ، وفي البيت الثالث صورة رائعة كشفت لنا بوضوح عن صفاء العنب ، وشفافيته حتى جعل الهواء شعاراً لما يحويه من ماء ، وكأني به قد أطلع على بيت أبي نواس في الخمر:.

يخفي الزجاجة لونها فكأنها

في الكف قائمة بغير إناء.

وما قاله المتنبي في وصف ثمار شعب بوان:.

لها ثمر تشير إليك منها

بأشربة وقفن بلا أوان.

ولكن تبقى الصورة التي رسمها ابن زيدون تفوق في خيالها وروعتها الصورتين اللتين رسمهما الشاعران وأبو عثمان المصحفي يصف ثمرة السفرجل ويقول:.

وَمُصْفَرَّةٍ تختالُ في ثوبِ نَرْجِسِ

وتعْبقُ عن مسكٍ زكيِّ التَّنَفُّسِ

لها ريحُ محبوبٍ وقسوةُ قلبِهِ

ولونُ مُحِبٍّ حُلَّةَ السُّقْمِ مِكْتَسِي

فَصُفْرتُها من صُفْرتي مستعارةٌ

وأَنْفَاسُها في الطِّيبِ أَنْفَاسُ مُؤْنِسِي

فلما اسْتَتَمَّتْ في القَضِيبِ شَبَابَها

وحاكتْ لها الأَنْواءُ أَبْرَادَ سُنْدُسِي

مَدَدْتُ يَدِي باللُّطْفِ أَبْغِي اقتطافَها

لأَجْعَلَها رَيْحَانَتِي وَسْطَ مَجْلِسِي

وكأن لها ثوبٌ من الزُّغْبِ أَغْبَرٌ

يَرِفُّ على جِسْمٍ من التِّبْرِ أملسِ[٣٢].

هذه الصورة الشعرية التي أتقن نسجها لفظاً ، ومعناً وما أوحى إليه به خياله وشاعريته.

وفي وصف الخضر نجد ابن صارة الشنتريني يصف الباذنجان فيشبهه مع أقماعه تشبيهاً بارعاً، وإن لم يكن أنيقاً بقلوب النعاج في مخالب العقبان:.

وَمُسْتَحْسَنٍ عندَ الطعامِ مُدَحْرَج
غَذَاهُ نميرُ الماءِ في كلِّ بستانِ
أطَافَت بهِ أَقْمَاعُهُ فكأَنه
قلوبُ نِعاجٍ في مَخَالِيبِ عقبانِ[٣٣].

(٤) **المائيات** :.

وكما أثارت الرياض ، وما فيها من أزهار، وثمار مشاعر الشعراء الأندلسيين ، فقالوا فيها الشعر، كذلك أثارت الأنهار ، والجداول ، والدواليب ، وما يجري على صفحاتها من زوارق، وأشرعة مشاعر الشعراء ، ولا تكاد تخلو قطعة شعرية في وصف الرياض من وصف ما فيها من مياه ، إلى جانب أنهم خصصوا في شعرهم مقطوعات، وأبيات في وصف النهر، فمن ذلك قول ابن خفاجة :.

للّه نهرٌ سالَ في بَطْحَاءِ
أشْهَى وُرُوداً مِنْ لَمى الحَسْنَاءِ
مُتَعَطِّفٌ مثل السِّوارِ كأَنهُ
والزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجَرُّ سَمَاءِ
قَدْ رَقَّ حتَّى ظُنَّ قُرْصاً مُفْرَغاً
مِنْ فِضَّةٍ في بُرْدةٍ خَضْرَاءِ
وغَدتْ تَحُفُّ به الغُصُونُ كأَنها
هُدْبٌ يَحُفُّ بمُقْلةٍ زَرْقَاءِ
ولطالما عَاطَيْتُ فيهِ مُدَامَةً
صفْرَاءَ تَخْضِبُ أَيدِيَ النُّدَمَاءِ
والرِّيح تَعْبَثُ بالغُصُونِ وقَدْ جَرَى
ذَهَبُ الأَصِيلِ على لُجَيْنِ الماءِ(٣٤).

ففي هذا النص نجد ابن خفاجة تميز بدقة الملاحظة في تحليل جزئيات الصورة ،كحديثه عن مذاق النهر وشكلة والزهر من حولة وصفاء لونه ،وما يحف به من غصون، ثم يتعمق في تصويره ويحلل جزئيات هذا التصوير عندما يتخيل ماءه الصافي حول هذه الرياض قرصاً من فضة في بردة خضراء ويتخيل الغصون التي تحف به هدباً حول العين الزرقاء ،فقد عبر

الشاعر عن المعنى في صورةٍ جميلة يزينها الخيال وتسري في أعطافها عاطفه تؤثر في النفس وتوقظ فيها الانفعال ،فيعرض الشاعر كل ذلك بلغة شعرية جميلة.

ومن ذلك قول أحمد بن الشطرية القرطبي يصف النهر:.

انظر إلى النهر الذي
لا ينقضي خفقاته
أمواجه في دوحة
ما جت بها أشجانه
مرحت به في ملعب
مترادف فرسانه
قد درعّته الريح إذ
طعنت به أغصانه[٣٥].

فقد صوّر لنا الشاعر النهر، كأنه قلباً خافقاً يموج بالأشجان ، أو هو فرس جموح عنانه بيد النسيم ، فقد أضفى على هذه الأبيات حياة ، حركة.

ويفتن الشعراء الأندلسيون في رسم الصور الغريبة للزورق على صفحة النهر، فقد شبهه أبو الحجاج المنصفي

بصقر انحط مذعوراً على صفحة النهر فراراً من عقاب يطارده، فقال في ذلك:.

وَسَابحٍ بَأنَ لا تُثْنَى قَوَائِمُهُ
كالصَّقْرِ يَنْحَطُّ مذْعُوراً لعُقْبَانِ
كأنه مقلةٌ للجوِّ شاخِصَةٌ
ومِنْ مجاذِيفِهِ أَهْدَابُ أجْفَانِ(٣٦).

(٥) **الثلجيات** :.

لقد برع شعراء الأندلس في وصف الشتاء بما حمله من برد ، وثلج ، ولو تابعنا الثلجيات عند شعراء الأندلس وجدناها لم تنل من اهتمامهم بالقياس إلى الروضيات ، والمائيات إلا أقل القليل ، ربما لأن لثلج متاعبه ، و مخاطره كما قال الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه(٣٧) ، ومهما يكن فأن الثلجيات بدأت في الأندلس متأخرة ، وأن أول من أنشأ شعراً في الثلج في الأندلس هو ابن خفاجة ففي قوله:.

ألاَ فَضَلَتْ ذَيْلَها ليلةٌ
تَجُرُّ الرَّبَابَ بها هَيْدَبا
وقد بَرْقَعَ الثلجُ وَجْهَ الثَّرَى
وأَلْحَفَ غُصْنَ النَّقَا فَاحْتَبَي

فَشَابَتْ وراءَ قِنَاعِ الظَّلامِ
نَوَاصِي الغُصُونِ وَهامُ الرُّبَى
فَمَهْمَا تَيَمَّمْتُ خَمَّارةً
رَكَبْتُ إلى أَشْقَرٍ اشْهَباً
وحَيَّيْتُ جانِبَها طارقاً
فقالتْ تُجِيبُ أَلاَ مَرْحَباً
وقامتْ بأَجْيَدَ مِنْ كَأْسِها
لأَوْقَصَ مِنْ دَنِّها أَحْدَبَا
فجاءَتْ بحمراءَ وقَّادةٍ
تَلَهَّبُ في كأْسِها كَوْكَبَا(٣٨).

فنجد عند الشاعر في هذا النص دقت الملاحظة وعمقها وخصب الخيال في تحليل الصورة وتسجيل جزئياتها،فقد إعتمد ابن خفاجة على الطبيعة التصويرية، ومزج أفكاره بها ، فهو يتنفس دائماً في رحابها فشخصها وتعاطف معها ،وأفرغ عليها من روحه، فإذا هي مفعمة بالحيوية والحركة.

ولعل أشهر من عرض للبرد هو الشاعر عبد الجبار بن حمد يس الصقلي ، فقد قال قصيدة في البرد، ووصف السيول ، والغدران ، والبرق ، والروض ، وفيها عامداً إلى خلق صورة

شعرية لطيفة مثل تصور البرد دراً في نحور الحسان، أو تشبيهه باللؤلؤ الذي أصدافه سحاب ، أو جعله حبات دموع للسحاب، فمن ذلك قول :.

نَثَرَ الجوُّ على الأَرْضِ بَرَدْ
أيُّ دُرٍّ لنُحُورٍ لو جَمَدْ
لؤلؤٌ أَصدافُهُ السُّحْبُ التي
أَنَجْزَ البارِقُ منها ما وَعَدْ
منحتْهُ عارِياً مِنْ نكدٍ
واكتسابُ الدرِّ بالغوْصِ نَكَدْ
ولقدْ كادتْ تُعادي لقْطَةُ
رَغْبَةً فيه كريماتُ الخدَدْ
وتحلَّى منه أجياداً إذا
عُطِّلتْ راقتك في حَلَي العَبَدْ
ذَوَّبتْهُ مِنْ سَمَاءٍ أَدْمُعٌ
فوقَ أَرْضٍ تَتَلَقَاهُ نَجَدْ
فَجَرتْ منهُ سُيولٌ حولنا
كثعابينَ عجال تطَّردْ[٣٩].

يصف ابن حمديس في هذا النص مظاهر الطبيعة، وأول ما يلاحظ فيه أن الطبيعة عنده ليست طبيعة حية متحركة؛ تبعث على التأمل؛ وتحمل على التفكير، كجبل ابن خفاجه؛ وإنما هي طبيعة تتقحَّمُها العين، وتتفتح لها الأذن، إنها الطبيعة كما تنقلها الحواس، لا الطبيعة كما تتمثلها الروح. وإنما نجده ينقل إلينا ما وقعت عليه عَيْنه، وسمعته أذنه. إن ابن حمديس مفتون حقاً بالطبيعة؛ ولكنها فتنة الحواس لا فتنة الروح، فهو يصف في هذا النص البرد الذي نثرته السماء على الأرض، فهو في لألائه وصفاته كالدرر لو جمد لزين الصدور، وحلىّ النحور. إنه كاللؤلؤ الذي يتساقط من أصدافه. وما أصدافه سوى هذه السحب المِعطاء الخيِّرة التي يلتمع فيها برق صادق، قد حقق ما وعد به من أمطار غزيرة فجرت منه سيول.

الباب الثالث

فلسفة الطبيعة

وأثرها في أغراض الشعر الأندلسي

١ – الغزل.

٢ – المديح.

٣ – الشكوى والتحسر.

٤ – الرثاء.

فلسفة الطبيعة وأثرها في أغراض الشعر الأندلسي:.

طبيعة الأندلس ساحرة خلابة ، صادفت من الشعراء إحساساً مشبوباً، وقلباً متفتحاً ، فافتتنوا بها أيما افتتان ، وزاد في ولعهم بها أنهم مزجوا بينها وبين الأغراض الشعرية من مديح ، ورثاء ، وغزل ، وشكوى ، وتحسر، وغير ذلك من الأغراض التي كان للطبيعة نصيب فيها.

(ا) في الغزل:

لقد مزج شعر الطبيعة ووصفها بالغزل ، وهو أمر مقبول لأنه تزاوج بين فنين أليفين رقيقين ، فمن ذلك قصيدة ابن زيدون في ولادة بنت المستكفي التي بعث بها إليها من الزهراء، وقد تميزت القصيدة بنسج الرقة المتناهية ، ووشي الزينة البهيجة ، والتأنق في المعاني العذبة ، والتحرز في اختيار اللفظ الموقَّع في نطاق الديباجة الناعمة المنسابة كأنغام القيثار، كما قال ذلك الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه[٤٠]، فقد قال ابن زيدون :.

إِني ذَكَرْتُكِ بالزّهْرَاءِ مُشتاقا
وَالأُفقُ طَلقٌ وَمَرْأَى الأَرْض قد رَاقَا
وَلِلنَّسِيمِ اعْتلالٌ في أَصَائِلِهِ

كأنّه رَقَّ لي فاعتلَ إشْفاقَا
وَالرّوْضُ عن مائِه الفِضِّيّ مُبتسِمٌ
كما شَقَقْتَ عن اللَّبّاتِ أطْواقا
يَوْمٌ كأيّام لَذّاتٍ لنَا انْصرَمَتْ
بِتْنَا لهَا حِينَ نَامَ الدّهْرُ سُرَاقا
نَلْهُو بما يَسْتَمِيلُ العَينَ مِنْ زَهَر
جَالَ النَّدى فيهِ حتى مالَ أعنَاقا
كَأَنَّ أَعْيُنَهُ إِذْ عَاينَتْ أَرَقى
بَكَتْ لِما بي فَجالَ الدّمعُ رَقرَاقا
وَرْدٌ تَألَّقَ في ضَاحي مَنابِتِه
فازْدادَ منهُ الضُّحى في العينِ إشْراقا
سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ
وَسْنَانُ نَبَّهَ مِنْهُ الصّبْحُ أَحْدَاقا
كلٌّ يهِيجُ لنا ذِكْرَى تَشَوّقِنَا
إليكِ لمْ يَعْدُ عَنها الصّدْرُ أَنْ ضَاقا(٤١).

وفي ربوع الزهراء الساحرة حيث ازدانت الحقول بالمروج الخضراء ، والأزاهير الزاهية ، وتجلت السماء عن صفحةٍ زرقاء صافية ، يعن ذكرُ ولادةَ في خاطر ابن زيدون، وهو في

حال من اللوعة ، والأسى تستدعي الاشفاق ، إنه طريدٌ هارب ، بعيدٌ عن بلده ، ناء عن حبيبته ، تهب عليه نسمات الأصيل ، فيراها آسية على ما به راثيه لحاله.

وترجع الذكرى بابن زيدون إلى أيامه الخوالي ، فيرى نفسه لاهياً مع من أخلص لها بالحب ، وأصفى لها الود ، حين كانا يتمتعان بمرأى الطبيعة الخلابة من ورودٍ عبقة ، وأزاهير شذيَّة ، وكان كل ما في الطبيعة من أزاهير ، وورود ، وجداول ، وغدران ، ومروج ، ورياض ، وكل بقعة ، أو نبتة في ربوع تلك الجنة الفيحاء يهيج في نفس ابن زيدون دفين الذكرى ، ويثير فيها لواعجَ الشوق ، وكوامنَ الشجن.

ولكن ابن زيدون المحزون لم يعد يرى في تلك الأزاهير ، والورود سوى عيون دامعة ليست قطراتُ الطل فيها سوى عبراتٍ حارة تنذرف من فرطِ أساها على الشاعر المحب ، وما يعانيه من سهاد ، ولوعة.

ولعل أجمل ما وقف عليه الشاعر في هذه القصيدة أنه استطاع أن يُشخص مظاهر الطبيعة بشراً يحبون ، ويتحركون ، وينفعلون.

وهذا الخيالُ تطلب من الشاعر أن يلجأ إلى أسلوب طريف من المجاز ، أحال معه الرياحين ، والورود ، والمياه أناس تنبض بالحياةِ ، وتشاركُ الشاعر أفراحه ، وأتراحه ؛ فالنسيم الذي يغدو عليلاً من فرط رثائه لحال الشاعر البائس والروض الذي يتدفق بجداوله ، ويضارع في جماله صدرَ ولادة الفسيح ، وقد التمعت فوقه حباتُ اللؤلؤ براقة ، والورود التي تذرف الدموع مدراراً على الشاعر ، والنيلوفر الناعس الذي استيقظ على أشعة الشمس يتضوع الكون بشذاه.

كلها استعارات ، وتشبيهات استطاعت بجمالها ، وقرب مأخذها واتساق بعضها مع بعض أن تضفي على القصيدة جمالاً ما بعده جمال.

لقد بدا ابن زيدون في هذه القصيدة عاشقاً لولادة مفتوناً بالطبيعة ، وقد اتحدت الحبيبة بالطبيعة ، وامتزجتا معاً في نفس الشاعر ، والطبيعة يجملها الحب؛ والحب جامع لمفاتن الطبيعة.

وهذا الامتزاج ، والاتحاد بين الشاعر ، والطبيعة ، والمرأة معاً على هذا النحو فقلّ أن وجدنا نظيراً له.

يقول الدكتور سيد نوفل عنها إنها قصيدة " تموج فيها عاطفتان : عاطفة الماضي الجميل تكسبه الطبيعة الحلوة مزيداً من الحسن ، وعاطفة الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة ، والكآبة.

والشاعر إذا تحدث عن الماضي ابتسمت الطبيعة في طلاقة الأفق ، وصفاء وجه الأرض ، وابتسام الروض ، وطرب الزهر ، وتألق الورد ، وإشراق الضحى، وإذا تحدث الحاضر تمثل له في اعتلال النسيم ، وإشفاقه ، وبكاء الزهر ، وجولان دمعة الرقراق ، ونعاس النيلوفر ، وبذلك يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر التي يذكيها جو الذكرى باعثاً في النفوس لحناً من الأسى ، والإشفاق ، والصدى العميق"(٤٢).

أجاد ابن زيدون في مزج نفسه بالطبيعة الحية من حوله، فقد مزج بين الطبيعة وموضوعه الذي يدور حول الغزل والشكوى، وكأنه يريد أن يوازن بين حالته النفسية السيئة وبين منظر الطبيعة الذي يوحي بالبهجة والمرح والسرور وصراعه النفسي بين عاطفتين عاطفة الماضي الجميل الذي عاشه مع ولادة، فقد كانا يعيشان في صفاء، يستمتعان ويلهوان بجمال الطبيعة من حولهما.

وذلك عندما يقول:

إني ذَكرْتُكِ، بالزّهْرَاء مُشتاقا
وَالأُفقُ طَلقٌ وَمَرْأَى الأَرْض قد رَاقَا
نَلْهُو بما يَسْتَمِيلُ العَينَ مِنْ زَهَر
جَالَ النَّدى فيهِ حتى مالَ أعَناقا

وبين عاطفة الحاضر المحروم، عندما دب الخلاف بينه وبين ولادة، وأجج ناره بعض الحساد.

كَأَنَّ أَعْيُنَهُ إِذْ عَاينَتْ أَرَقى
بَكَتْ لِما بي فَجالَ الدّمعُ رَقرَاقا
لو شاءَ حملي نسيمُ الصُبح حين سَرَى
وافاكمُ بفتىً أضناهُ ما لاقى

فالزهر عندما رأى الشاعر رثى لحاله، فانساب الندى، كأنه دموع تحدرت بين أوراقه، ثم يناجي حبيبته معلنا أنه لم ينساها أبداً، ولو قدِّرَ لنسمات الصباح التي تهُبُّ نحو منازل الحبيبة وأن تحمل الشاعر المحب على جناحها لما وجدت فيه ولادة غير عاشق أضناه الشوق وأهزله ما لاقى من سجن وتعذيب والآم فراق.

لقد نجح ابن زيدون في نقل تجربته الشعورية التي مربها ومزجها بالطبيعة.

وابن خفاجة في غزلة كان متأثراً بالطبيعة الجميلة التي عاش في رحابها ،ولهذا جاء شعره في الغزل مستمداً عناصره من صورة هذه الطبيعة ومفاتنها من ذلك قوله:

غَزَالِيّةُ الْأَلْحَاظِ ،رِيمّيةُ الطُّلى ∴ مُدَامِيّةُ الأَلْمى ،حَبَابِيّةُ الثَّغْرِ (٤٣)

تَرَنَّحُ في مَوْشِيَّةٍ ذَهَبِيةٍ ∴ كَمَا اشتبكتْ زُهْرُ النُّجُوم على البَدْرِ

فابن خفاجة في هذا النص يتغزل في محبوبته غزلاً حسياً خالصاً، فيصف مفاتنها الجسدية ويمزجها بالطبيعة، فعينها كعين الغزال وعنقها كعنق الظبي، وسمرة شفتيها كالخمر، واسنانها بيضاء لامعة كالفقاقيع التي تطفو على الماء، وأنها تتمايل متبخترة في أثواب رقيقة مزخرفة بالأشكال والألوان وكعادته في صورة يكثر منها إلى درجة التزاحم ، وبالغ في التحليل الصورة وتسجيل جزيئاتها ومزجها بالطبيعة .

(ب) **المديح**:.

أما مشاركة الطبيعة لشعر المديح فهي ظاهرة مشرقية قبل أن تكون أندلسية فأول من حاول ذلك في المشرق مسلم بن الوليد، ثم أبو تمام، والبحتري فشعر الطبيعة في المديح كان في

المشرق قليل، ويجري في حذر شديد، إلا أنها في شعر الأندلسيين صريحة، واضحة ، عالية الصوت ، ولعل أشهر قصيدة هي رائية أبى بكر بن عمار في مدح المعتضد بن عباد يقول :.

أَدِر الزُّجَاجةَ فالنَّسِيمُ قد انْبَرَى
والنجمُ قدْ صَرَفَ العِنَانَ عنِ السُّرَى
والصبحُ قد أَهَدى لنا كافورَه
لما استردَّ الليلُ منَّا العنبرَا
والروضُ كالحسْنَا كساهُ زُهرُه
وَشْياً وقلَدَهُ نداهُ جَوْهَرا
أو كالغلامِ زَهَا بوردِ رياضِهِ
خَجَلاً وتاهَ بأسهِنِ مُعَذَّرَا
روضٌ كأَنَّ النهرَ فيه معْصَمٌ
صافٍ أطلَّ على رداءٍ أخَضرَا
وتهُزُّهُ ريحُ الصَّبَا فتخالُهُ
سيفَ ابنِ عبادٍ يبدِّدُ عسْكَرَا
عبادٌ المخضرُّ نائلُ كفِّهِ
والجوُّ قد لبس الرداءَ الأخضرا

وبعد هذه المقدمة عن شعر الطبيعة يدخل ابن عمار إلى مدح المعتمد قائلا:.

أَثَّمَرْتَ رُمْحَك من رؤوس ملوكهمْ
لَّما رأيتَ الغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا
وصبغْتَ دِرْعَكَ من دماءِ ملوكهمْ
لما رَأَيْتَ الحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرا(٤٤).

وأما ابن خفاجة فقد كان يمهد لمدائحه بغزل رقيق فيه صنعة العبقري ، ثم يقف عند مظهر من مظاهر الطبيعة ، فيصف غمامها ، أو رياضها ، إلى أن يقوده المطاف إلى الممدوح ، وقصيدته الرائية في مدح أبي الحسن بن الربيع صاحب قرطبة تتبع هذه الطريقة ، وقد اتخذ من الطبيعة طريقاً لمدح الممدوح فيؤلف من ذلك لوحة فنية حية ينقل فيها الطبيعة إلينا من خلال مدح ابن الربيع حيث يقول :

وغمامةٍ نَشَرتْ جناحَ حَمامةٍ ∴ والبرقُ قد نَسَجَ الظلام نَهَارا
متألقٌ صدعَ الدجى وسَقَى الثرى ∴ فابيضَّ ذا نوراً وذا أنْوارا
في أجرعٍ خَلَفَ الربيع به ابنه ∴ كرَماً فأخصب ربوةً وقرارا
هفتِ الصَّبا منه بمسرى ديمةٍ ∴ هطلاءَ قرَّ بها العجاج وقارا
وكفَتْ فسالتْ فضةً ولربما ∴ طَبعت بكل قرارةٍ دينارا
أرضٌ هبطتُ بها سماءً طلقةً ∴ وخبطتُ من سَدَفٍ بها أَنوارا

عاطيتُ ذكرَ أَبي الحسن بها السُّرى ∴ ريحانة يَشْتَمُّها مِعطـــــارا

وسلافَةً خَفَّتْ بنا طـــــــرباً لها ∴ واستر قصيت من فِتية ومَهارى

عِبثت بها سِنَةَ الكرىُ فَتمـــايَدتَ ∴ في ملتقى أسحارها أسحارا(٤٥).

(جـ) **الشكوى والتحسر**:.

ومثلما امتزج شعر الطبيعة مع الغزل ، والمديح، وكــذلك امتزج مع شعر الشكوى ، والتحسر ، ويعد هــذا اللــون مــن الشعر فريد من نوعه، لأنه مزج بين ضــدين، بــين الطبيعــة الباسمة ، والمشرقة، وبين الشكوى والحسرة ، واليأس، ومن ذلك قول ابن زيدون في قصيدة التي بعثها إلــى صــديقه أبــو القاسم بن رفق يُظهر له فيها مودته ، ويتحسر على أيام مضت فيقول:.

لَيتَ شِعْرِي والنفسُ تَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ
بِمجْدٍ على الفَتَى : ليتَ شِعْرِي
هلْ لخالِي زمانَنِا مِنْ رُجوعٍ
أَمْ لماضي زماننا مِنْ مِكَرِّ
أَيْنَ أيامُنَا وأَيْنَ لَيالٍ
كَرِياضٍ لبِسْنَ أَفْوافَ زَهْرِ
وزمانٌ كأَنَّما دَبَّ فيه
وَسَنٌ أوْ هَفَا به فَرْطُ سُكْرِ

حين نَغْدُو إلى جَدَاوِلَ زُرْقٍ
يَتَغَلْغَلْنَ في حَدَائِقَ خُضْرِ
في هضابٍ مَجْلُوَّةِ الحُسْنِ حُمْرٍ
وَبَوادٍ مصقولةِ النَّبْتِ عُفْرِ(٤٦).

ومن ذلك قول المعتمد بن عباد، وهو يتأمل حاله راسفنا في القيد سجيناً في الظلام، وأكثر أبنائه وبناته أسرى، وسبايا، فيقول في ذلك:.

فِيمَا مَضَى كنْتَ بالأَعيادِ مسْرُورَا
فساءَكَ العيدُ في أغْمَاتَ مَأْسُورَا
ترى بَنَاتِكَ في الأطْمَارِ جائعةً
يَغْزِلْنَ للنَّاسِ لا يَمْلِكْنَ قطْمِيرا
بَرَزْنَ نَحْوَكَ للتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً
أَبْصَارُهُنَّ حَسِيراتٍ مَكَاسِيرَا
يَطَأْنَ في الطين والأقدام حافية
كأَنها لمْ تَطَأْ مِسْكاً وكافُورَا(٤٧).

وذلك قوله بتحسر ويستنجد بالطبيعة لعل صفاءها يكون له أسى وإشراقها يكون له مخرجاً، فيكتب بذلك قصيدة لصديقة الشاعر ابن حمد يس متوجعاً:.

فيا لَيْتَ شِعْرِي هل أَبِيتَنَّ ليلة
أَمَامِي وَخَلْفِي رَوْضَةَ وَغَدِيرُ
بِمُنْبَتَّةِ الزَّيْتُونِ مَوْرُوثَةِ العُلاَ
تُغَنِّي قِيانٌ أَوْتَرِنَّ طُيُورُ
بِزاهِرِهَا السَّامِي الذي جَادَّه الحَيَا
تُشِيرُ الثُّرَيَّا نَحْونَا ونشِير
ويَلْحَظُنَا الزَّاهِي وَسَعْدَ سُعُودِهِ
غَيُورَيْنِ والصَّبُ المحبُّ غَيُورُ
تُرَاهُ عَسِيراً لا يَسِيراً مَنَا لُه
أَلاَ كلُّ مَا شَاءَ الإِلهُ يَسِيرُ(٤٨)

(د) **الرثاء**:.

لقد مُزج شعر الطبيعة بالرثاء، فكان رائع النظم ، والسبك ، ومنها قول ابن الزقاق في أحد مرثية (٤٩):

أَلاَ عِظَةٌ إِنَّ الزمانَ خؤونُ
وإِنَّ مُلِمَّاتِ الزمانِ فُنُونُ
لقد آنَ أَنْ تُجْلَى الخطوبُ عن العَمَى
وتُلْفَى شكوكٌ للمُنَى وظُنُونُ
فكم قَدْ مَضَتْ مِنْ أَمَّةٍ إِثْرَ أُمَّةٍ

وقَرْنٌ يَلِيه بعد ذَاكَ قُرُونُ

ويمضي ابن الزقاق في ذكر مصائب الدهر ، ونكبات الأيام حتى يصل إلى قوله:

وبِالأَمْسِ قَدْ رُوِّعْتُ مِلءَ جَوَانِحِي
بِنَعْيٍ يَسُدُّ الأُفْقَ مِنْهُ طنينُ
أَتَانِي فَلَمْ يُمْهِلْ لأَفْزَعَ عِندهُ
إِلى كِذبٍ حتى اسْتَفَاضَ يَقِينُ
وَوَافَي كمثْلِ الصُّبْحِ عُرْيَانَ كَلَّمَا
تُكَذِّبُهُ عَيْنُ البصِيرِ يبِينُ

وكذلك قول ابن الزقاق عندما يطلب من الطبيعة أن تأسى ، وتحزن ، ويستنكر رفيف أزاهيرها، وميسان غصونها ، ويدعو عليها بالجفاف ، والجدب؛ لأنها لم تبكِ معه على غصن المجد الذي صوح ، ويعني به الفقيد المرثي فيقول:.

فيا حَسْرتَا أَنْ مَالَ للبَينِ والنَّوَى
وأَقْفَرَ مِنْ ليْثِ المجالِ عَرِينُ
وصَوَّح غُصْنٌ مِنْ ذُرَى المجْدِ نَاضِر
وأَقْوَى مِنْ القَصْرِ الرفِيعِ مَكِينُ
فَمَا لِلرُّبَى لاَ جَادَهَا بارِقُ الحَيَا

تَرفٌّ أَزَاهِيرٌ لَهَا وغُصُونُ
وَمَا لِلْجِبَالِ الصُّمِّ لَمْ تَنْصَدِعْ أَسىً
وَلِلزَّهْرِ خَفْقٌ بَعْدَهُ وَسُكُونُ

ونستطيع أن نقول : إن الشعر الأندلسي هو أغنى شعر عربي من حيث وصف الرياض ، والزهور ، والجداول ، والأمطار ، فقد شغف أهل الأندلس بالطبيعة إلى درجة أنهم جعلوها شيء أساسي في شعرهم مما أثر في مد مخيلتهم بالأوصاف الجميلة والخيال اللطيف، والصور البَّراقة الملوَّنة.

الخاتمة :

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً، وأصلي ، وأسلم على أشرف الأنبياء ، والمرسلين و آله وصحبه تسليماً كثيراً.

فقد تم بفضل الله ، وعونه هذا البحث الموجز عن فلسفة الطبيعة وأثرها في الشعر الأندلسي ، وأرجو أن أكون قد أعطيت الموضوع حقه ، كما أرجو الاستفادة منه ، فاللهم ألهمنا الصواب ، والحق ، وعلمنا ما ينفعنا ، واهدنا لأرشد أمورنا، إنك نعم المولى ، ونعم النصير ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صل الله عليه وسلم...

تم بحمده..

الهوامش :.

١ – الأدب العربي في الأندلس للدكتور عبد العزيز عتيق ،عام ١٩٧٦م، صـ٢٨٤ـــ٢٨٦ـــفحة.

٢ – فتوح البلدان– لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، صـ٢٦٢ـــفحة.

٣ – تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي– للدكتور يوسف خليف ، صـ١٩٧ـــفحة.

٤ – ديوان ذي الرمة ، صـ٢٨٦ـــفحة.

٥ – الأدب العربي في الأندلس– للدكتور عبد العزيز عتيق ، صـ٢٨٦ـــفحة.

٦ – ديوان أبي تمام شرح الخطيب التبريزي– قدم له ووضع الحاشية راجي الأسمر– الجزء(١) ،صـ٣٣٢ـفحة.

٧ – ديوان البحتري– تحقيق حسن كامل الصيرفي ، صـ١٢٨ـــفحة.

٨ –الأدب العربي في الأندلس– للدكتور عبد العزيز عتيق ، صـ٢٨٧ـفحة.

٩ – نفس المرجع ، صـ٢٨٧ـــفحة.

١٠ – كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس للشيخ أبي عبدالله محمد بن الكتاني الطبيب– تحقيق الدكتور: إحسان عباس ، صـ٤٤ فحة.

١١ – الأدب العربي في الأندلس– للدكتور عبدالعزيز عتيق ، صـ٢٩٣ـ٢٩٤ فحة.

١٢ – في الأدب الأندلسي– للدكتور جودت الركابي، صـ١٥١ فحة.

١٣ – الأدب الأندلسي في عصر الموحدين– للدكتور حكمة علي الأوسي صـ٨٩ـ٩٠ فحة.

١٤ –الأدب الأندلسي– للدكتور جودت الركابي ، صـ١٣٢ـفحة.

١٥ – المرجع السابق ، صـ١٣٥ فحة.

١٦ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري ٣٢٣/١، وانظر أيضا في الأدب الأندلسي– للدكتور جودت الركابي ، صـ١٣٢ـ١٣٣ـفحة.

١٧ – قصة الأدب في الأندلس– تأليف: محمد عبد المنعم خفاجة ، صـ١١٧ـ١١٨ فحة.

١٨ – في الأدب الأندلسي- للدكتور جودت الركابي، صـ١٣٠ـفحة ، وأيضاً انظر التجديد في الأدب الأندلسي- للدكتور باقر سماكه ، صـ٣٨ـفحة.

١٩ – الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه- للدكتور مصطفى الشكعة ، صـ٢٦٣ـفحة.

٢٠ – الأدب الأندلسي في عصر الموحدين- للدكتور حكمة علي الأوسي ، صـ٦٩ـفحة.

٢١ – الأدب الأندلسي- للدكتور مصطفى الشكعة ، صـ٢٦٦ـ٢٦٧ـفحة.

٢٢ – المرجع السابق ، صـ٢٦٥ـفحة.

٢٣ – المرجع نفسه ، صـ٢٨٠ـفحة.

٢٤– البيئة الأندلسية ، وأثرها في الشعر: عصر ملوك الطوائف، للدكتور سعد إسماعيل شلبي ، صـ١١٣ـفحة.

٢٥ – المرجع السابق، صـ١١٣ـ١١٤ـفحة.

٢٦ – المرجع السابق، صـ١١٤ـفحة.

٢٧ – الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه- للدكتور مصطفى الشكعة ، صـ٢٨٣ـ٢٨٤ـفحة.

٢٨ – البيئة الأندلسية ، وأثرها في الشعر: عصر ملوك الطوائف، للدكتور سعد إسماعيل شلبي ، صـ١١٧فحة.
٢٩ –الأدب الأندلسي في عصر الموحدين– للدكتور حكمة علي الأوسي، صـ٧٤فحة.
٣٠ –المرجع السابق ، صـ٧٤فحة.
٣١ – البيئة الأندلسية ، وأثرها في الشعر: عصر ملوك الطوائف، للدكتور سعد إسماعيل شلبي ، صـ١٢٣فحة.
٣٢ – الأدب الأندلسي– للدكتور مصطفى الشكعة ، صـ٣٠٠فحة.
٣٣ – المرجع السابق ، صـ٣٠٤فحة.
٣٤ – المرجع السابق ، صـ٣١٣فحة.
٣٥ –الأدب الأندلسي في عصر الموحدين– للدكتور حكمة علي الأوسي ، صـ٧٩فحة.
٣٦ –الأدب الأندلسي للدكتور مصطفى الشكعة ، صـ٣١٩فحة.
٣٧ – المرجع السابق ، صـ٣٣٠فحة.
٣٨– المرجع نفسه ، صـ٣٣٠ـ٣٣١فحة.
٣٩– المرجع السابق ، صـ٣٣٤فحة.

٤٠- المرجع السابق ، صـ٣٤٣ـ فحة.

٤١- المرجع نفسه ، صـ٣٤٣ـ فحة.

٤٢- شعر الطبيعة في الأدب العربي- لـ/ سيد نوفل ، صـ٢٦٧ـ فحة ، انظر أيضاً الأدب الأندلسي- للدكتور جودت الركابي ، صـ٢١٨ـ فحة.

٤٣- غزالية الألحاظ: اللحظ هو العين والمراد عينها كعين الغزال. ريمية الطلى :الريم ولد الظبي، والطلى بضم الطاء: الأعناق جمع طلية.والمراد أن عنقها كعنق الظبي. مدامية الأمى :المدام الخمر .الألمى :الواضح اللمى وهو سمرة الشفتين . حبابية الثقر: المراد أن اسنانها بيضاء لامعة كفقاقيع الماء.

٤٤-الأدب الأندلسي- للدكتور مصطفى الشكعة ، صـ٣٤٦ـ٣٤٧ـ فحة.

٤٥- في الأدب الأندلسي- للدكتور جودت الركابي ، صـ١٤٦ـ١٤٧ـ فحة.

٤٦- الأدب الأندلسي- للدكتور مصطفى الشكعة ، صـ٣٥٠ـ فحة.

٤٧- المرجع السابق ، صـ٣٥١ـ فحة.

٤٨- المرجع نفسه ، صـ٣٥٣ـ فحة.

٤٩- المرجع السابق ، صـ٣٥٧ـ٣٥٨ـ فحة.

المراجع :.

١ – الأدب الأندلسي في عصر الموحدين للدكتور/: حكمة علي الأوسي ، رقم تسلسل التعضيد "١٥" للسنة ٧٥/ ١٩٧٦م.

٢ – الأدب الأندلسي ، موضوعاته ، وفنونه ، للدكتور/: مصطفى الشكعة ، الطبعة الخامسة ١٩٨٣م ، دار العلم للملايين – بيروت لبنان.

٣ – الأدب الأندلسي للدكتور/: جودت الركابي ، دار المعارف – القاهرة.

٤ – الأدب العربي في الأندلس للدكتور/: عبد العزيز عتيق ، عام١٩٧٦م.

٥ – البيئة الأندلسية ، وأثرها في الشعر: عصر ملوك الطوائف ، للدكتور/: سعد أسماعيل شلبي

٦ – التجديد في الأدب الأندلسي للدكتور/: باقر سماكه ، الطبعة الأولى.

٧ – ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريزي– قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر– الجزء الأول– الطبعة الثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م – دار الكتاب العربي ببيروت.

٨ – ديوان البحتري– بتحقيق حسن كامل الصيرفي– القاهرة– دار المعارف– ١٩٦٣م.
٩ – ديوان ذي الرمة– مؤسسة الرسالة– بيروت ١٩٨٢م.
١٠ – شعر الطبيعة في الأدب العربي للدكتور/: سيد نوفل ، القاهرة ، ١٩٤٥م.
١١– فتوح البلدان– لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري– ط المصرية بالأزهر ١٣٥٠هـ– ١٩٣٢م.
١٢– قصة الأدب في الأندلس لـ/: محمد عبد المنعم خفاجة ، منشورات مكتبة المعارف في بيروت.
١٣– كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس للشيخ/: أبي عبد الله محمد بن الكتاني الطيب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس.
١٤– نفح الطيب من غصن الأندلسي الرطيب للمقري.

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــوع	الصفحة
١	المقدمة	٨٢٥
٢	خطة البحث	٨٢٧
٣	الباب الأول	٨٢٨
٤	تطور وصف شعر الطبيعة عبر العصور من الجاهلية إلى العصر الأندلسي.	٨٢٩
٥	الخصـائص العامـة لشـعر الطبيعـة في الأندلس.	٨٤٤
٦	الباب الثاني : شعر الطبيعة في الأندلس	٨٥١
٧	الروضيات.	٨٥٤
٨	الزهريات.	٨٥٨
٩	الخضر والثمر.	٨٦٢
١٠	المائيات.	٨٦٦
١١	الثلجيات.	٨٦٩
١٢	الباب الثالث : فلسفة الطبيعـة وأثرهـا في أغراض الشعر الأندلسي	٨٧٣

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١٣	الغزل.	٨٧٤
١٤	المديح.	٨٨٠
١٥	الشكوى والتحسر.	٨٨٣
١٦	الرثاء.	٨٨٥
١٧	الخاتمة.	٨٨٨
١٨	الهوامش.	٨٨٩
١٩	المراجع.	٨٩٤
٢٠	الفهرس.	٨٩٦